منهجية البحث العلمي عند المناطقة وأثرها في الإستدلال تصوراً وتصديقاً (دراسة تحليلية)

أ. د. عبدالله محمّد كريم
جامعة السليمانية / كلية العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين

خلاصة البحث

خلاصة بحثي هذا المعنون: منهجيةالبحث العلمي عند المناطقة وأثرها في الإستدلال تصورا وتصديقاً، دراسة تحليلية، أنّه متكون من مقدمة، ومبحثين، والمبحثانمتكونان من أربعة مطالبة، في المبحث الأول: تكلمت عن منهج المناطقة في الإستدلال من الناحية اللفظية، وذلك من خلال مطلبين، ففي المطلب الأول: بيّنت نشأة الإستدلال العقلي وميزته، وفي المطلب الثاني: وضحت منهج أصحاب الفكر العقلاني في الإستدلال من الناحية اللفظية.

وفي المبحث الثاني: تكلمت فيه عن منهج المنطقي من الناحية المعنوية، وإكتساب العلم اليقيني لدى المفكر العقلاني، وذلك في مطلبين: المطلب الأول: في منهج المنطقي في الإستدلال من الناحية المعنوية، وذكرت ثلاثة أوجه من المناهج، والمطلب الثاني: بيّنت فيه أسباب إكتساب العلم اليقيني ، وذكرت فيه ستة أسباب لذلك العلم اليقيني، ثمّ بيّنت أهم ما توصلت إليه من الأفكار في هذا البحث في خاتمة، وذكرتأيضاً المصادر التي إعتمدت عليها، ثمّ خلاصةالبحث باللغة الإنكليزية.

❊ ❊ ❊

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلم.

معروف أنّ الحياة الفكرية في كلّ عصر هي نتيجة تفاعل بين المفكرين وبين ما يعيشون من ظروف ثقافية وإجتماعية ودينية، وإذا أردنا أن ندرس الحياة الفكرية في عصر من العصور، لنقف على عناصرها، ونميّز الأصيل فيها من الدخيل، كان من المحتّم أن نرسم صورة العصر الذي تجلّت فيه، ومن أجل ذلك كان علينا قبل أن نعرض المنهج العقلي المنطقي في الميدان الفكري والثقافي الإسلامي أن نتعرّف إلى العصر الذي برز فيه، والعوامل التي أنمتْه وطوّرتْه:

إشتملت الدولةُ الإسلامية في أواخر العصر الأموي، وأوائل العصر العباسي على شعوب مختلفة الأجناس والثقافات والأديان، فإنتشرت فيها ثقافات كثيرة، و تيارات فكرية لم تألفها الحضارة الإسلامية من قبل، وبذلك أصبحت حواضر هذه الدولة المترامية الأطراف بمثابة بوتقات فيها هذه العناصر، ولكلّ منها طابع خاص، قال أحمد أمين في كتابه ـ ضحى الإسلام ـ:

أنّ هذه الثقافات كان لها أثر عميق في الثقافة العربية، فنرى الثقافة الفارسية: تُدخل كثيراً من الشعر والأدب والحكم والقصص، وتؤثر في العادات، والتقاليد، ونظم الحكم.

وتدخل الثقافة الهندية: أبحاثاً في الفلسفة الدينية،

وتعليم الرياضة، كما تدخل قصصاً وكمّاً أدبية وشعائر وتقاليد إجتماعية، وأمّا الثقافة اليونانية: فكان لها النصيب الأوفر، ويرجع ذلك إلى ما أنتجه الفكر اليوناني وقيمته، وطرافته في جميع الميادين من فلسفة، وعلم، وفن.[١]

إنتشرت الحضارة اليونانية في الشرقين الأوسط والأدنى بعد الفتح الإسكندري، وتأسست مدارس للبحث في جنديسابور،وحرّان، وأنطاكية، والإسكندرية، وقد إنتقلت منها الروح العلمية إلى قيسارية فلسطين، ونصيبين، والرها، ورأس العين، وقنسرين، والحيرة على يد القساوسة، فكانوا في مناقشاتهم اللاهوتية يستعينون بالفلسفة اليونانية ومنطقها، سواء لدحض من هاجم الدين بإسم الفلسفة، أو لتركيز العقائد على أسس فلسفية، وفي هذه الفترة أي من القرن الثالث الميلادي إلى القرن السادس، ترجم السريانُ إلى السريانية كتباً يونانية كثيرة أهمها: كتب المنطق لأرسطو، ثمّ نقلوها فيما بعد إلى العربية، وقد إزدهرت حركة الترجمة في العصر العباسي الأول عصر المهدي،[٢] والرشيد،[٣] والمأمون[٤]، ومن الجدير بالذكر أنّ أول ما ترجم هو بعض كتب أرسطو في المنطق.[٥]

فالمعارف اليونانية نفدت إلى الشرق الأدنى قبل الإسلام، وإنّ الأماكن التي إزدهرت فيها العلوم اليونانية كانت الرها، ونصيبين،وجنديسابور بالنسبة إلى النساطرة، وأنطاكية،وآمد، بالنسبة إلى اليعاقبة، ثمّ كانت هناك مدارس في الأديار أهمّها دير القديس أفثنيوس في قنّسرين بسوريا للتعليم اللاهوتي، وقد إقتصروا في التعليم الفلسفي على بعض أجزاء المنطق، ومن أهمّ من عنوا بالمنطق:سويرسسيوبخت اليعقوبي المتوفى سنة ٦٦٧م، وأثناثيوسالبلذي، وقد وضع مقدمة للمنطق الأرسططالي، وأيوب الرهاوي المتوفى سنة ٧٠٨م، وجورجيس المتوفى سنة ٧٦٤م أسقف العرب في حوران، وقد إشتهر كـ شارح ومترجم لمنطق أرسطو، وبرز أيضاً في هذا القرن الثامن الميلادي من بين النساطرة: ماراً أبا، ويوشع، ودنحا، وكانوا

(١) ينظر ضحى الإسلام لأحمد أمين، ص ٢٣٧ ــ ٢٦٥.

(٢) هو: محمّد بن المنصور أبو عبدالله، ولد سنة سبع وعشرين ومائة، وأمّه أم موسى بنت منصور الحميرية، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الردّ على الزنادقة والملحدين، توفي سنة تسع وستين ومائة. ينظر تأريخ الخلفاء لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، ص ٢٧١ وما بعدها، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، مكتبة الشرق الجديد ــ بغداد ــ العراق، دار العلوم الحديثة، بيروت ــ لبنان.

(٣) هو: هارون بن المهدي محمّد بن منصور عبدالله بن محمّد بن علي بن عبدالله بن العباس، أبو جعفر، ولد بالرّي، وأمه أم ولد تسمّى الخيزران، وهي أمّ الهادي، إستخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادي ليلة السبت من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠هـ، وتوفي بطوس سنة ١٩٣هـ. ينظر تأريخ الخلفاء، ص ٢٨٣ وما بعدها.

(٤) هو: عبدالله أبو العباس بن الرشيد، ولد سنة ١٧٠هـ، في ليلة الجمعة في شهر ربيع الأول، وهي الليلة التي مات فيها الهادي، وأمه أم ولد إسمها مراجل ماتت في نفاسها به، وإستخلفه أبوه، ومات سنة ٢١٨هـ. ينظر تأريخ الخلفاء ص ٣٠٦ وما بعدها.

(٥) ينظر التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ص ١١٨ ــ ١١٩، عبد الرحمن البدوي.

مترجمين وشراحاً لأرسطو.[١]

وكان القرن الثالث الهجري عصر المترجمين حقاً، وأهمّهم: حنين بن إسحاق المتوفى ٢١١هـ، وقد ترجم كتباً كثيرة طبية وفلسفية، وقام بعده إبنه إسحاق بترجمة بقية كتب أرسطو وشراحه، وجدير بالذكر أنّ عاصمة الخلافة بغداد كانت مركز هذه الحركة الثقافية بفضل عناية الرشيد، والمأمون، والمعتصم[٢]، ووزرائهم وتشجيعهم المترجمين والمؤلفين.[٣]

وهكذا إنبثقت العلوم اليونانية ولا سيّما منطق أرسطو، وإنتشرت في بلدان الشرقين الأدنى والأوسط على يد سريان سواء في أديارهم أو في حواضرهم، فإزدهرتإنطاكية ومن بعدها حران، وكانت حرّان مركزاً هامّاً للثقافة اليونانية في المنطقة التي يتكلم أهلُها الآرامية الشرقية.[٤]

فهذه العلوم وصلت ولا سيّما المنطق منها إلى الأوساط الإسلامية في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، أي في الفترة التي نشأ فيها علم الكلام بمعناه الدقيق على يد المعتزلة، فكان هناك طريقان: الطريق الرئيسي يمرّ بجنوب فارس، وأمّا الثاني يمرّ بدمشق فلا نعرف عنه إلا إشارات طفيفة.[٥]

وفي البصرة الحركة العقلية كانت غالبة في جميع مرافقها، لأنّها كانت على مقربة من جنديسابور، فلاقت في أهلها أرضاً خصبة، وطبيعة مؤاتية، وطبعتهم بطابعها العقلي، فلمّا وصلتهم بعض عناصر الفلسفة، والمنطق أسرعوا إلى تلقفها وإستغلالها أكثر من سواهم، فظهر أثرها عندهم سواء أكان ذلك في النحو أم في الكلام، فكانت أيضاً في الحياة الدينية موطناً للحركات الفكرية التي تعتمد أولاً على العقل، ففيها ولدت القدرية ونشأت، ومنها إنبثقت المعتزلة وإزدهرت، وفيها تأسست حركة إخوان الصفا وخلان الوفا،وإنتشرت.

وعندما ننظر في منهج هذه الحركات الفكرية نرى لكلّ فرقٍ منهجاً وطرقاً للإستدلال، فعند فلاسفة المسلمين يثبتون علّة وجود الأشياء بدليل الوجوب والإمكان، وينظرون إلى الشيء: أنّه إمّا واجب أو ممكن أو مستحيل، والصوفية نظروا في البحث عن الشيء: عن طريق الكشف، ويرون أنّ وراء العقل مراحل كثيرة لا يعرف عددها إلا الله تعالى، وعند المتكلمين أنّ إثبات الشيء: لا يكون إلا بإثبات الجوهر الفرد، وإثبات الأعراض له، ثمّ الإستدلال بحدوث الجواهر والأعراض وإمكانهما.[٦]

أمّا المُفكِر المنطقي فمنهجه تشمل التفكير والتعبير، فيستعين بأساليب المنطق في وضع التعريفات من تقسيمٍ وحدٍّ ورسمٍ وتصنيف، ويستعين بالفلسفة أيضاً لتحقيق غايته، وتحليله يبدأ في التعبير ثمّ في

(١) ينظر التراث اليوناني ص ٥٣ ــ ٥٥.
(٢) هو: أبو إسحق محمد بن رشيد، ولد سنة ١٨٠هـ، وتوفي يوم الخميس في شهر الربيع الأول سنة ٢٢٧هـ. ينظر تأريخ الخلفاء ص ٣٣٣وما بعدها.
(٣) ينظر التراث اليوناني ص ٥٨، الفهرست، إبنديم إسحق بن إبراهيم بن ميمون ص ٣٤٧ وما بعدها.
(٤) ينظر التراث اليوناني ص ٧٠.
(٥) ينظر التراث اليوناني ص ٦١.
(٦) ينظر الباقلاني وآراؤه الكلامية ص٣٩٩ وما بعدها، للدكتور محمّد رمضان عبدالله، مطبعة الأمة ــ بغداد.

التفكير، وفي تحليل الأمور والأحداث، وتحديد عللها المادية والصورية والغائية، فيمتاز بدقة نادرة في إختيار الألفاظ، بحيث تكون مطابقة للمعنى من ناحية دلالتها، وتَتلاءمُ مع حال المخاطب، ثمّ ينتقل إلى تحليل طريقة تفكيره، وما تقوم عليه من إستخراجٍ للمعاني وتأليفها، ويهتم بإستخراج ما يكمن فيها من معانٍ، وذلك بوصف الواقع وتحليله، والوقوف على أسبابه ومسبَّباته، وفهمه بالتالي فهماً حقيقياً، وذلك بتفهم العلل والأسباب، وإزالة الشبهات عن الحقّ، والعناية بمعطيات الحواس والواقع ونقدها، والإنتقال فيها من الشك إلى اليقين وذلك:

بالإستدلال بالقياس والإستقراء والتمثيل، ويحقق الواقع بواسطة التحقيق توصلاً إلى اليقين وذلك: بالشكِّ وما يتضمنه من توقف وتريث، وما يترتب عليه من تنقيب وإستقصاء وتجربة، وبنقدِ معطيات الحواس ونتائج الإستدلال، ويقوم بالنقد بالتهكم والهجاء.

وعملي في هذا البحثهو تحليل منهج المناطقة التحققيفي الإستدلال تصوراً وتصديقاً، فبحثنا إذاً يقتصر على شرح دستور العقل البشري، وتحديد معالم المعرفة الإنسانية، وتمتد أيضاً إلى تفسير التصورات الأولية.

ومهمة التحليل في الأفكار تهدف إلى معرفة مكونات الأشياء، والمفاهيم المعقدة وفق هذه المعطيات، فيبدأ الفيلسوف التحليلي من موضوع المشكلة كـ الإنسان أو الطبيعة أو اللّغة مثلاً ثمّ يردّه إلىوحدته الأولية التي يتركب منها، والتي لا يمكن بدورها أن تنحلّ إلى ما هو أبسط منها، إذ أنّ التحليل المعقد والغامض إلى البسيط والمجزأ يبيّن سرّ الغموض، وسبب التعقيد.

ويتكون هذه الدراسة من مقدمة، ومبحثين، وكل مبحث يتكون من مطلبين، وأتكلم في المبحث الأول في التحليل التحققيمن الناحية اللغوية، وأقسمه على مطلبين، ففي المطلب الأول: بيان نشأة الإستدلال العقلي، وميزته، وفي المطاب الثاني: ذكرت فيه المنهج التحليل التحققي لأصحاب الفكر العقلاني في الإستدلال من الناحية اللفظية، ثمّ يأتي المبحث الثاني: في المنهج التحليل التحققي المنطقي في الإستدلال من الناحية المعنوية، وإكتساب العلم اليقيني، ويتكون أيضاً من مطلبين: ففي المطلب الأول: منهج التحليلالمنطقيمن الناحية المعنوية، ثمّ في المطلب الثاني: أشرح أسباب إكتسابالعلماليقينيعندالمفكر التحققي، وأذكر أيضاًخاتمةً لأهمّ ما توصل إليها من النتائج، ثمّ أذكر أسماء المصادر التي إعتمدت عليها في البحث، ثمّ تأتي خلاصة البحث باللغة العربية، وترجمتها باللغة الإنكليزية:

وبتوفيقٍ من الله تعالى بذلت جهدي حدّ الإمكان في بيانٍ المعرفة الإنسانية على أساس واضحة لا لبْسَ فيها، ولا غموض، وذلك بنقل المعرفة من دائرة الحدس والتقليد القائم على التسليم إلى دائرة العقل المنطقي الذي لا يستهدي في مقدماته ونتائجه إلا الحجة والمنطق والبرهان، أو الخبرة التجريبية التي يمكن التحقق من صدق قضاياه بالمشاهدة والعودة إلى الواقع.

المبحث الأول

منهج المناطقة في الإستدلال من الناحية اللفظية

- **المطلب الأول: في نشأة الإستدلال العقلي، وميزته:**

لمّا كان البحث يدور حول الإستدلال العقلي المنطقي، نرى من الضروري أن نورد في هذا المطلب أهمّ خطوط نشأة الإستدلال العقلي المنطقي التحققي، وتطوره إلى علم قائم بذاته، نبرز عناصره، والمكانة التي شغلها فيه التناظر والجدل، وتلك الأسباب هي:

١ـ الخلاف حول آيات القرآن المتشابهة، فالفتوح الإسلامية أفسحت المجال أمام المشتغلين بالأمور الدينية للإطلاع على ثقافات جديدة ولا سيّما على الفلسفة اليونانية وجدلها ومنطقها، فكان لهذا الإتصال أثر كبير في تطوير الإستدلال المنطقي وجعله علماً قائماً بذاته، فأخذ المتجادلون يستعينون بالعقل وأحكام المنطق في خصامهم وتناظرهم، قال إبن خلدون[١] في كتابه ــ المقدمة ــ [٢] أنّه عرض خلاف في تفاصيل العقائد، أكثرها مثارها في الآيات المتشابهة، فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والإستدلال بالعقل زيادة إلى النقل.

٢ـ شغف المسلمين بالفلسفة: قال زهدي جار الله في كتابه ــ المعتزلة ــ[٣]: (كانت المعتزلة طليعة المدارس الكلامية التي قامت لحل ما كان يشغل المسلمين من المشاكل الحيوية، مثل مشكلة حرية الإرادة، ومشكلة مرتكبي الكبائر، وقد عنى رجال هذه المدرسة بدرس الفلسفة للإستعانة بها في الدفاع عن العقيدة، ثمّ أخذوا تدريجاً يحاولون التوفيق بين العلوم النقلية والعلوم العقلية، وعندما توغلوا في الفلسفة وتعمّقوا في مسائلها أحبوها لذاتها فعظّموا شأنها حتى صاروا يُخضعون النقل للعقل، ويؤلون معتقداتهم الدينية ليوفقوا بينها وبين الفلسفة).

فهم ألموا بالفلسفة بقدر إلمامهم بالدين، لأنّ الفلسفة توفر له أساليب البحث، وتخط له طرق التفكير في الدفاع عن الدين، والفصل بين الحق والباطل في سائر الصناعات، فمن أراد إذاً أن يأمن الزلل والخطأ في تفكيره وإستدلاله وبناء قياسه سواء أكان ذلك في العلوم النظرية أم في العلوم التطبيقية كالطيب مثلاً فعليه أن يكون متكلماً ملماً بالفلسفة ليستمد منها وسائل إقتناص الحق وكشف الستار عن الباطل إبتغاء اليقين.[٤]

---

(١) هو: عبدالرحمن بن محمّد بن محمّد إبن خلدون أبو زيد ولي الدين الخضرمي الأشبيلي، من ولد وائل بن حجر، الفيلسوف، المؤرخ، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ، ونشأ بها، وتوفي في القاهرة فجأة سنة ٨٠٨هـ. ينظر الأعلام قاموس وتراجم، لخيرالدين الزركلي، ٣ / ٣٣٠، دار العلم للملايين، بيروت ــ لبنان، والبدر الطالع بماحسن من بعد القرن السابع ص ٣٢٠ ــ ٣٢١، لمحمّد بن علي الشوكاني.

(٢) المقدمة لعبدالرحمن بن محمّد بن خلدون ص ٤٦٣، دار القلم، بيروت ــ لبنان.

(٣) ينظر المعتزلة ص ١٢ وما بعدها.

(٤) ينظر كتاب الحيوان للجاحظ ٥ / ٥٩، تحقيق

٣ـ مكانة العقل عند الحركات الفكرية: الفكر ليس هو الذي يدور حول الأشياء، وإنّما الأشياء هي التي تدور حول الفكر لكي تصير موضوع إدراك وعلم في العلم التحليلي، وطبيعة المعرفة الإنسانية وشروطها وحدودها تكون بشرح صور الحساسية، ومقولات الذهن، وأفكار العقل.

فالحركات العقلانية والمنطقية يعتبرون العقل معين المعرفة، وأنّه يستطيع أن يعلم كل شيء حتى ما وراء الطبيعة، ويستعينون به في سعيهم وراء المعرفة، ويعتمدون على قوانينه وأحكامه في دعم العقائد والدفاع عنها، فأطلقوا له عنان البحث في جميع المسائل، وأعملوا العقل في توضيح معنى الأشياء بصورة منطقية دقيقة، ومن هذه الحركات العقلانية حركة المعتزلة الفكرية، وسمّوا أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، لأنّهم إتخذوا قضيتي العدل والتوحيد أساساً لتفكيرهم، وفي كل موضع من أبحاثهم يعلون من شأن سلطان العقل، فرفعوا العقل إلى مرتبة القياس والدليل في أمر العقيدة، وإعتبروه حاسة سادسة في إكتساب المعارف، وبما أنّ المعرفة الحقيقة هي التي تفيد بردّ اليقين، وأنّ الشك مرحلة إنتقالية في الوصول إلى اليقين، فتبين لنا كيف أنّهم أدخلوا الشك في منهج تفكيرهم، وجعلوه الشرط الأول للمعرفة، فقالوا إذاً بسلطان العقل وحرية الإرادة، وحسب زعمهم حرّروا بالتالي العقل من الجمود والوقوف عند ظاهر النصوص، وهم وإن إختلفوا في آرائهم فإنّ ملامح حرية الرأي وتشريح المسائل ونقدها حسب أصول مستقاة من المنطق واضحة في نشاطهم الفكري.[1]

للعقل في تفكير كلّ منطقي أهمية جوهرية، فبِه تُميّز الإنسان عن الحيوان، وهو المرجع الأخير في حياة الإنسان الخلقي، وفي نشاطه الذهني، وهو الفاصل بين الحق والباطل، ويُميز بين الحجة والحيلة، وبين الدليل والشبهة.

ووظيفة العقل عند الحركات الفكرية العقلانية مزدوجة في الميادين الخلقي والذهني: أمّا في الميدان الخلقي: فالعقل هو الآلة التي بها يفرِّق بين ما له وما عليه، ويتسلط على شهواته، ويقوِّم ما أعوج منه، ويسكِّن ما تحرّك، وأمّا في الميدان الذهني: فالعقل آلة المعرفة لوجود الله تعالى، وتوحيده وتنزيهه، وإثبات العدل له، ودفع الظلم عنه، وهو يدرك أيضاً حسن الأشياء وقبحها، وتقوم على تفهم علل الأمور وأسبابها، ويعمل في التحري عن العلل، وتحديد الأسباب، لأنّ تفهم العلل لا يكون إلا بالإستدلال، والعقل هو آلة الإستدلال، فالعلم الذي يفيده العقل يقوم على الإستدلال لتفهم أسباب الأمور وعللها.[2]

- **المطلب الثاني: منهج المفكر العقلاني من الناحية اللفظية:**

اللفظأوالكلمة هي النعصر الرئيسي الذي يتكون منه الكلام، ففي إختيارها وترتيبها تتجلى فنيّة

(١) ينظر ضحى الإسلام ٣ / ٢٢ ــ ٤٤ ــ ٦٩ــ ٧٢.

(٢) ينظر شرح المواقف للشريف الجرجاني والمواقف لعضد الدين الإيجي، ١ / ٤٩٧ وما بعدها، دار الطباعة العامرة.

عبدالسلام هارون، القاهرة.

المنطقي وقدرته على التعريف في شرح الماهيات التصورية، وعلى القياس في الوصول إلى النتائج والمطالب التصديقية، وبالتالي تتجلى أيضاً نزعته الفكرية، فالكلمة: بالنسبة إلى المنطقي كاللون: بالنسبة إلى الرسّام، فكما أنّ عمل الرسام الفني يقوم أولاً على إختيار ألوانه بحسب مقتضيات موضوعه، كذلك يقوم عمل المنطقي أولاً على إختيار ألفاظه وكلماته في التعريف والقياس، وهذا الصنيع يتلخّص في مقارنة الألفاظ بعضها ببعض، والتفضيل بينها ريثما يتّضح أيّها أصلح للموضوع وأقرب ملاءمة للمعنى، وذلك بتقديم الجنس على الفصل في التصورات، وبترتيب الأشكال في الإستدلال فالأول ثمّ الثاني وهكذا، غير أنّ المقارنة والتفضيل يعتمدان على الحدّ والرسم في التعريف، والبرهان والسفسطة في القياس.

إذاً صحة التعريف والقياس تترتب أولاً على إختيار ألفاظ تدلّ دلالة تامّة على المعنى، وتتلائم مع مقاصد المعلومات التصورية والتصديقية، غير أنّ إتيان الألفاظ في القياس لن تفيد معنى بمجرد جمعها وضم بعضها إلى بعض، بل ينبغي أن تُضاغ في جُمل، وترتب الجُمل حسب شروط الأشكال الأربعة، ولكلّ شكل منها شرط خاص بها، فيجب على المنطقي أن يراعي تلك الشروط.

فالمنطقي له عناية شديدة بالألفاظ، ودقة إختيارها وصنعة تنسيقها، بحيث تدل دلالة تامّة على المعنى وتطابقه مطابقة كاملة، ولذلك أدخل المناطقة في منطقهم مباحث في التصورات والتعريفات، لأنّ المنطق لا يتطلب الدقّة والوضوح في التفكير فحسب بل يتطلب الدقّة في إستعمال الألفاظ والتراكيب اللغوية، فالمنطق له أثر في دقة إختيار الألفاظ وإيجاز في تركيبها وتلاؤم في تأليفها، وله أثر في مطابقة الأفكار لما يقتضيه الواقع.

فالعنصر اللفظي يرشدنا إلى شخصية المنطقي من تخييره الألفاظ، ودلالتها على المعنى، وأنّ أساليب إستخراج المعاني المقصودة للتعريف في التصوراتوالقياس في التصديقات حسب رأيي يكون بواسطة:

١ـ تصوير الواقع، ووصفه.

٢ـ تحليل الواقع، وتفهمه.

ولمّا كانت غاية الألفاظ أداء المعنى، وجب أولاً على المنطقي أن يختار ألفاظاً تدل على شرح الماهية، أو توضيحها في القول الشارح، وأن يختار الألفاظ في الجمل المفيدة في مقاصد التصديقات، كما قال بشر بن معتمر:[١] ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك مقاماً،حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعنى،[٢] بحيث لا يحتاج السامع أو القارىء إلى التأويل، فيكون حينئذٍ الكلام مقصوراً على المعنى، لا مقصراً عنه، ولا فاضلاً عليه.

---

(١) هو رئيس معتزلة بغداد، وكان كوفيّاً ثمّ إنتقل إلى بغداد، وهو من الطبقة السادسة من المعتزلة، ينظر فرق وطبقات المعتزلة، لعبد الجبار الهمداني ص ٦٢ ــ ٦٣، تحقيق على سامي النشار، وعصام الدين محمّد عليّ، دار المطبوعات الجامعية سنة ١٩٧٢م.

(٢) ينظر البيان والتبين ١ / ١٣٦.

لا ريب في أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يملك من أنواع القدرات والقابليات العقلية والسلوكية ما يجعله كائناًإستثنائياً متميزاً، فهو الكائن الذي يتذكر ماضيه، ويدرك حاضره، ويستشرق مستقبله،بإختاصر إنّه: يَعي، ويُدرك ذلك.

فالإنسان أثناء تعاملاته مع الآخرين وكذا إذ ما أراد أن ينقل أفكاره إلى غيره لا يجد فكاكاً من إستعمال اللغة، ويمكن لنا تلخيص أهميتها من خلال قول سقراط لجليسه: تكلم حتى أراك.[١]

ولهذا المنهج العقلاني بوجهيها الجدلي والمنطقي تسيطر على تفكير هؤلاء المفكرين بحيث أصبحت ميزة يتميز بها أسلوبهم في البحث والجدل، لأنّ الفلسفة أثرت في البلاغة مباشرة عن طريق ترجمة كتب أرسطو الثمانية في المنطق، بما فيها من كتاب الخطابة، وكتاب الشعر، ويظهر عندما نقارن بين أبحاث البلاغة العربية وأبحاث أرسطو في الكتاب الثالث من الخطابة، لقد بحث مقدمة البلاغة وأقسامها الثلاثة من: معانٍ وبيانٍ وبديعٍ.[٢]

فالبلاغة والفصاحة ليستَ مفهوماً فحسب، بل علماً أيضاً يرشد المتعلم إلى بلوغ هدفه، لأنّ البلاغة تستلزم تخيّر اللفظ في حسن الإفهام، ولمّا كان الكلام ينحل إلى أفكار وصياغات، فقد يتفرع عن علم البلاغة علمان يتناولان هاتين الناحيتين: وهما المنطق والنحو.

أمّا النحو: فيعنى ببنية الكلمات والجمل والعبارات، وبصحتها وترابط فقرها، وأمّا المنطق: فيعنى ببنية التفكير وطرقه وصحة ترابط الأفكار في العرض والتدليل، وتنحصر مهمتهما في صحة التفكير والتعبير.

ولهذا نرىإهتمام المفكرين العقلانيين بصناعة الكلام والبلاغة في الإستدلال، فكان لهم أثر أكيد في نشأتها وطور دراستها وتدوينها، وإتضح للناظر بصناعة الكلام والبلاغة أنّ الفلسفة بعامة والمنطق بخاصة قد نفذا على يدهم إلى هذه البلاغة، وتركا فيها أثراً جلياً، فمتكلمو المعتزلةِ منذ عصر ظهورهم أصحابُ دعوة، وكانوا يستعينون بالفلسفة ويتسلحون بأسلحتها في أداء دعوتهم، فكانوا بحكم مهنتهم وعاظاً وخطباءَ، أصحاب جدل ومناظرة، فبثّوا وعاظهم في أرجاء الدولة العباسية، لا سيّما على عهد المأمون، والمعتصم، والواثق[٣] الذين جعلوا من الإعتزال مذهب الدولة الرسمي، فذهبوا يثيرون المسائل ويبرهنون عليها، ويحركون العقول للبحث والتفكير وتقليب الآراء على وجوهها المختلفة، وينازلون الخوارج والمرجئة وأصحاب المذاهب والأديان الأخرى، وكانوا يبحثون الموضوعات الدينية والفلسفية والأدبية، ويناقشون في كافة أوجه ثقافة ذلك العصر الشاملة، ولما

(١) سقراط نقلاً عن الفلسفة وقضايا اللغة لـ بشير خليفي ص ٣٢، منشورات الإختلاف.

(٢) ينظر البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها ص ١٢ ــ ١٤ لأمين الخولي.

(٣) هو: أبو جعفر بن المعتصم بن رشيد، ولد سنة ١٩٦هـ في شهر شعبان، مات بسامراء يوم الأربعاء من شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ، ولمّا مات تُرك وحده، وإشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جرذون فاستلّ عينه فأكلها. ينظر تأريخ الخلفاء ص ٣٤٠ وما بعدها.

كانت دعوتهم تقوم على إفهام مستمعيهم وإقناعهم بوجهة نظرهم، وإيصال الدعوة فكان من الطبيعي أن يهتموا بالوسائل والطرق والأساليب التي تضمن لهم تحقيق غايتهم وإنجاح مشروعهم فإستدرجهم ذلك إلى العناية بالبلاغة، ومن ثمّ جاءت هذه متأثرة بنزعتهم الكلامية وأصولها الخطابية والجدلية والمنطقية، فكبر فضلهم، وعظم شأنهم.

فحذاق هؤلاء المفكرين يحسنون من صنعة الكلام في وزن الذين يحسنون من كلام الفلسفة، والعالم منهم هو الذي يجمعهما.[١]

ولمّا كانت صناعة الكلام التي تخلوا من الخلل، تصيب هدفها وتبلغ غايتها وتنجح في أداء وظيفتها، فقد عني أساتذة المفكرين العقلانيين بتحديد شروط إنجاح الكلام وتبليغه إلى المستمعين وتأثيره فيهم التأثير المنشود، ولذلك إشترطوا فيه حسن الإفهام.

قال بشر بن المعتمر[٢]: ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكلّ حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات،وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.[٣]

وقد إمتاز كبار المتكلمين بهذه الميزة في دعوتهم حتى قال عنهم إبن الخياط[٤]: إنّهم أرباب النظر دون جميع الناس، وإنّ الكلام لهم دون سواهم.[٥] وجعلهم ذلك يهتمون بالخطابة وقواعدها مما أدّى فيما بعد إلى نشأة علوم البحث، والجدل، والبلاغة.[٦]

❊ ❊ ❊

(١) ينظر الحيوان ٢ / ١٣٤.

(٢) وهو من الطبقة السادسة من المعتزلة، ينظر فرق وطبقات المعتزلة ص ٦٢ ــ ٦٣.

(٣) ينظر البيان والتبين ١ / ١٣٨ ــ ١٣٩.

(٤) من الطبقة الثامنة للمعتزلة، وهو عبدالرحيم بن محمّد بن عثمان أستاذ أبي القاسم البلخي، وعبدالله بن أحمد من أصحاب جعفر رضي الله عنه، ينظر فرق وطبقات المعتزلة ص ٩٠ وما بعدها

(٥) الإنتصار والردّ على إبنالراوندي الملحد للخياط ص ٧٢، الناشر، مكتبة الثقافة الدينية.

(٦) ينظر ضحى الإسلام ٣ / ٩٥.

المبحث الثاني

منهج المنطقي من الناحية المعنوية، وإكتساب العلم اليقيني

ويتكون من مطلبين:

- **المطلب الأول: منهج المنطقي في الإستدلال من الناحية المعنوية:**

نحاول أن لا نجعل بحثنا مجرد محاولة منهجية من أجل تعيين الحدود الدقيقة التي يصلح في طاقتها إستخدام العقل كأداة للمعرفة، بل وضع العقل تحت محك الإختبار، بأن يمتحن قدرة العقل على المعرفة قبل إستخدامه كأداة للوصول إلى أيّة حقيقة من الحقائق، لأنّ الفكر ليس إثباتاً ولا نفياً، بل هو تساءل، وإستفهام.

لهذا أنّ المنطقي واقعي في تفكيره، وإستخراج معانيه، ورسم الواقع كلوحة كاملة تامة بفضل الأصول التي إستمدّها من عقليته الفكريةوإلتزامها في نظره.

والمنطق نفسه يخرج بطبيعته عن دائرة البحث، لأنّ للمنطق طابعاً صورياً محضاً، فهو لا يمدّنا بأيّة معرفة أولية عن الأشياء.

فالعقل يعمل أولاً في حقل الواقع، وحقل معطيات الحواس، فقد يلتمس المفكر الواقع ويسجله بأمانة شديدة مما يفسر للناظر نزعته الحسية التصورية، بل لا يكتفي بتسجيل الواقع فحسب، فيعمل فكره وعقله في تفهّم هذا الواقع، ويستعين بما يفيده المنطق من أساليب لإستخراج ما يتضمنه هذا الواقع من معانٍ، سواء أكان بتحرّيه العلل، أم بإستدلاله على حكمة الخالق.

ولمّا كانت الحواس معرّضة للخطأ، وكان من الممكن أن يتدخل الخطأ على التعليل والتدليل، فمن الضروي أن تخضع معطياتها للتحقيق توصلاً إلى اليقين، فمنهجه التحققييتكون من ثلاثة أوجه:

أولاً: المنهج الحسيّ: معطيات الحواس لها أهمية كبيرة في إكتساب المعرفة والعلم، وإكتشاف حكمة الكون والإستدلال عليها، فلإرتقاء من معرفة الحواس إلى معرفة العقول يدفع المفكر إلى الإقبال على الواقع بحواسه، يلتمسه بدقة شديدة، ليستوعبه بدقائقه وتفاصيله، ويقف على عناصره الملموسة، أو المرئية، أو المسموعة كافة.

فإذا ما تناول موضوعاً وضع نفسه مكانه ليصوِّره، لا كما يتصوره أو يتخيله للإفادة إلى أقصى حدّ من معطيات السماع، ولمّا كان الإنسان محدوداً مرتبطاًبحكم ظروفه المكانية والزمانية يعني المفكر بإجراء التجارب لزيادة إمكانيات الملاحظة كما كان يلجأ إلى تجارب غيره، ولذلك نرى المفكر أن منهجه الحسي تظهر في تفهم الواقع وجمع الأخبار وإجراء التجارب، وإليك التوضيح:

أـ تفهم الواقع بواسطة الحواس: والفهم معناه: ملكة التأليف أو التركيب التي تسمح لنا بالإنتقال من الحدوس الحسيّة إلى تجارب مترابطة تتعلق بموضوعات العالم الطبيعي، فليس التفكير بصفة عامّة سوى عملية ذهنية نردّ عن طريقها معطيات الحسّ المتناثرة إلى ضرب من الوحدة، والحكم

نفسه إنمّا ينحصر في ردّ كثرة التمثلات إلى الوحدة عن طريق الإستفاضة عن التمثيل الجزئي المباشر بتمثيل آخر أعمّ يكون من شأنه أن يضمه مع تمثلات أخرى عديدة.

وبعبارة أوضح: أنّ هذا القسم من التفهم يكون بالإستعانة بالحواس، وتسجيل ما تفيده من المعاني في الأداء عن موضوع ما، والإستعانة بالحواس في إقتناص المعاني وتوليد الأفكار لا تقتصر على النظر والمعاينة بل تشمل أيضاً اللمس والشم والسمع والذوق سواء أكان ذلك تلقائياً أم بمناسبة فيما هو بصدده من وصف بل ذهب - أمانويل كانت ١٧٢٤ - ١٨٠٤، أنّ القوة الحساسية الصورية كالون والصلابة والطعم والرائحة والحرارة والبرودة من القوة الفكرة الثلاث، والقوة الثانية والثالثة: الفهم الصوري والنطق.[١]

بـ تفهم الواقع بواسطة جمع الأخبار:لمّا كان الإنسان محدوداً مقيداً بظروف المكان والزمان، فإنّه لا يستطع أن يقف بنفسه على كلّ ما يجري ويحدث ليسجّلَه ويستوعبَه، ولذلك كان يلجأ إلى حواس غيره بواسطة السماع، وكان يعلم ما بين السماع والمعرفة من صلة، ويحرص على جمع الأخبار إبتغاء الوقوف على أقصى حدّ ممكن من المعطيات الحسيّة، والإفادة منها لفهم الواقع، وإستخراج ما إستخزن من المعاني.

فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا، وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة، وما ذلك إلا لأنّ كثرة السماع للإخبار العجيبة، والمعاني الغربية مشحذةللأذهان ومادة للقلوب وسبب للتفكير وعلّة للتنقير، وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً.[٢]

جـ تفهم الواقع بواسطة التجربة، أو تجارب غيره:ومعرفة التجربة إنمّا تبدأ بالحدوس الحسيّة ثمّ تنتقل منها إلى المفاهيم، أو التصورات الذهنية لكي تصل في النهاية إلى الأفكار، أو المبادىء العقلية أي الحساسية ثمّ الذهن ثمّ العقل.

المفكر المنطقي يستعمل التجربة كوسيلة لملاحظة الواقع، من حيث إنّها توفر للمفكر معطيات حسيّة جديدة، لأنّ ما يقع مباشرة تحت الحواس محدود جدّاً، فالنظر مثلاً: لا يخترق الحواجز، ولا ينفذ إلى باطن الجسم، فلذلك عمد إلى التجربة ليزيد بها إمكانيات المعاينة والملاحظة، فأخذ يلتمسها ويسجلها بدقته المألوفة، فكانت التجربة إذاً أسولباً من أساليب المفكر في إستيعاب الواقع كمرحلة أولى نحو المعرفة.

تعليقاً على قول الغزالي[٣]رحمه الله في كتابه:معيار

(١) ينظر تأريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٢١، لـ د يوسف كرم، دار الفكر ، بيروت ــ لبنان.

(٢) ينظر كتاب الحيوان ١ / ١١ ــ ٥٥ ـــ ٨٦، وحجج النبوة ١٢٥.

(٣) هو: محمّد بن محمّد بن محمّد بن أحمد الطوسي الشافعي، ولد سنة ٤٥٠هـ، وتوفي يوم الأثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥هـ، ودفن بمقبرة الطابران قصبة بلاد طوس. ينظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩ / ٣٢٢ وما بعدها.

العلم[١](إنّ التجربة ربمّا أوجبت قضاءً جزئياً، وربمّا أوجبت قضاءً أكثرياً)، قال الدكتور سليمان دنيا: (إنّ التجربة أصبح لها من الخطورة ما لم يكن في عصر الغزالي، فقد سيطرت المادية على: العلم، والفكر، والحياة كلها، وصارت التجربة طريق الوحيد لدى الماديّين، وناقضوا بمعرفتهم الماديّة كثيراً من المعارف التي لا تخضع للتجربة، فأنكروها، فمن الواجب في رأيي دراسة التجربة دراسة مستقصية لغرضين إثنين هامين:

أحدهما: التأكد من معرفة ما تتأدى إليه من معرفة، هل يبلغ مرتبة اليقين؟، أم هو دونه؟.

الآخر: التأكد من معرفة: هل هي الطريق الوحيد للمعرفة؟، أم هناك طرق أخرى سواها؟

وعندي: أنّ دراسة التجربة أمر واجب على أنصار المنطق القديم، أكثر ممّا هو واجب على أصحاب المنطق الحديث، لأنّ التجربة من وجهة نظر أصحاب المنطق الحديث تتمتع بنفوذ تحسد عليه، ولكن نفوذها هذا له خطر أي خطر على المنطق القديم، وما يرتبط به من علوم، فإذا كان المنطق القديم يريد البقاء لنفسه ولما يرتبط به من علوم فليحدد موقفه من هذا الهجوم، وليدفعه عن نفسه، أو فليعلن الإفلاس.

وقال أيضاً: لا أريد أن أقرر هنا حكماً بشأن التجربة، وإنمّا أريد أن أدعو إلى دراستها دراسة تتناسب مع ما يدعي لها من سطوة ونفوذ، وأن أفتح الباب فقط أمام دراستها، وأن أشير إلى المسؤول عن هذه الدراسة).[٢]

والذي فهمت من كلام (سليمان دنيا) أن نقول في التجربة:إنّ المعرفة: هي وليدة فعل الذهن في الأشياء لا العكس، ومعنى هذا أنّ الذهن هو الذي يركّب التجربة لا التجربة هي التي تركّب الذهن، فليس موقفنا من الطبيعة في هذه الحالة موقف التلميذ الذي يتلقى تعاليمه من أستاذه، بل هو موقف المحقق، أو القاضي الذي يضطر الشهود إلى الإجابة على ما يُوجّه إليهم من أسئلة.

ثانياً: المنهج العلمي العقلي:أي إستخدامالمفكر التحققيالأساليبَ المنطقيةَ لفهم الواقع، وإستخراج الحقيقة، فيستعين بالعقل، وأحكامه المنطقية، وأساليبه العلمية في إستخراج المعاني وتوليدها، إبتغاءً لتفهم الواقع، لأنّ علم المنطق تفكير عقلاني توصل المفكر إلى المطلوبالتصوري أو التصديقي الحقة عن طريق التأمل والتفكر بالنتائج ، والحاصلات اليقينية البعيدة عن الخطأ، والأساليب المنطقية يشمل: التعريف والتعليلوالإستدلال، لأنّ العقول المختلفة إذا إتفقت بعد تأمل وفهم وتدرب وبحث وتنقير ومعاندة وتبكيت وإثارة لأماكن المقابلة فلا شيء أصح منها، وإليك البيان لكل من هذه الأساليب الثلاثة:

أـ تفهم الواقع بواسطة التعريف:التعريف على إختلاف أنواعه حدّاًكان أو رسماً أو تقسيماً أو تصنيفاً هو: وسيلة لتوضيح معاني الأشياء وتحديدها في

(١) معيار العلم ص ١٨٩.

(٢) كلام سليمان دنيا في تحقيقه لمعيار العلم للغزالي ص ١٨٩.

الذهن، ليتسنى تصورها على حقيقتها، والعلم بها علماً دقيقاً.(١)

ولمّا كان التعريف بالحدّ والرسم يعتمد على التقسيم، بينما يعتمد التصنيف على الحد والرسم، فسنبحث بالتوالي في التقسيم أولاً، ثمّ الحد والرسم، ثم التصنيف:

* التقسيم:عملية تسبق التعريف بالرسم والحدّ، وتمهد الطريق لمعرفة الصفات الذاتية والعرضية اللازمة للشيء، وينتقل فيها المقسم من العام إلى الخاص، فيقوم على تحليل العام إلى أنواع وأصناف، كما في الكليات الخمس، فيبدأ من الجنس العالي إلى الجنس السافل، أو يبدأ من النوع السافل إلى نوع الأنواع فيقسم المفكر العالم مثلاً: إلى جمادٍ ونامٍ، ثمّ النامي إلى حيوانٍ ونباتٍ، ثمّ الحيوان إلى شيءٍ يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبح، وشيء ينساح، ثمّ يقسم ما يمشي إلى: ناسٍ، وبهائمَ، وسباعٍ، وحشرات، وهكذا.

أو أنّ العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين، شيء: جعل الحكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء: جعل الحكمة وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة.(٢)

قال الفارابي(٣) في تقسيم الأمور:(تنظر هل هي في ذلك المعنى بكمٍ واحدٍ؟، أم هي مختلفة الحكم؟، فنقول: إنّ الأمور منها ضرورية، ومنها ممكنة، ولا يوجد للأمور قسم ثالث، وجميع العلوم معناها على أحد هذين، وهي كلّها محصورة بهذين، فأيّ شيء ما من جملة الممكن فإنّ مبنى القول فيه على الشهودات، والمقنعات، والظنون الحسنة، والتقليدات، وما يشبهها ممّا هي في حيّز الممكن).(٤)

- التعريف بالحدّ والرسم:لكلّ مطلوب محمولاً وموضوعاً هما حدّاه وجزئاه، والأجزاء التي تحمل على الشيء تسعة: جنس الشيء وفصله وخاصته وعرضه وحده ورسمه وما فيه، وهذه السبعة بيعنها هي التي توضع للشيء.(٥)

وتصور العقل: هو أن يكون الإنسان بشيء من الأمور التي هي خارجة النفس، ويعمل العقل في ذلك الشيء، ويتصوره في نفسه على أنّ الذي هو من خارج ليس حقاً مطابقاً لما يتصوره الإنسان في نفسه، إذ العقل ألطف الأشياء، فالعقل فيه إذاً ألطف الصور.(٦)

التعريف بالحد: يقوم على تحديد الشيء بصفته الذاتية من الجنس والفصل القريبين كما في تعريف الإنسان: حيوان فصيح عاقل يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة ويستدل عليها.

وإذا إستعصى التعريف بالحد أمكن التعريف بالرسم، وهو يقوم على ذكر الصفات العرضية

(١) ينظر المنطق التوجيهي ص ٣٤، لأبي العلاء عفيفي.
(٢) ينظر كتاب الحيوان ص ٣١.
(٣) هو: محمّد بن محمّد بن طرخان بن أوزلغ، يعرف بالمعلم الثاني، ولد في فاراب على نهر جيحون سنة ٢٦٠هـ، وإنتقل إلى بغداد ونشأ بها، وتوفي بدمشق سنة ٣٣٩هـ. ينظر الأعلام ٧ / ٢٠، العبر في خبر من غبر ١ / ١٣٧.
(٤) مسائل متفرقة للفارابي ص ١١٧.
(٥) ينظر مسائل متفرقة للفارابي ١٠٣.
(٦) ينظر مسائل المتفرقة للفارابي ١١٨ ــ ١١٩.

اللازمة للشيء، والتعريف بالحد والرسم شائعة في الموضوعات الطبيعية والموضوعات الفلسفية والنفسية.

- التعريف بالتصنيف:ينتقل المفكر من الخاص إلى العام، على عكس ما يجري في التقسيم، ويعتمد فيه على التعريف بالحدّ، ويسمّى هذا بدليل الإستقراءالناقص أيضاً.(١)

بـ تفهم الواقع بواسطة التعليل:العليّة داخل في نطاق مبحث المعرفة، وهي مبدأ عدم التناقض، ويثبت عن طريق المنطق البحت، والعليّة: ليست سوى صورة خاصة يتطلب التسلسل المستمر، وهناك فارق أساسي بين التجربة والحلم والوهم، فالتجربة تقضي تعاقب الظواهر وفقاً لبعض القوانين دون أن يكون في وسع أحد أن يغيّر من نظام تسلسلها بحيث يضع حدّاً من حدودها مكان الآخر، في حين أنّ قانون العلّة لا يصدق بالنسبة إلى عالم الأوهام أو الأحلام، والعلّة: تنقسم إلى ما يفيد علّة وجود النتيجة، وإلى ما يفيد علّة التصديق بالوجود.(٢)

هو من أهم الأساليب التي يلجأ إليها العقل في صورة التفكير المفضية إلى المعرفة، إذ إنّ المعرفة تقوم أولاً على إدراك أسباب الأمور، غير أنّ هذه الأسباب على أنواع، منها ما يشير إلى العلّة المادية التي تحدث المسبب، ومنها ما يشير إلى العلة الصورية التي تحدث المسبب على صورة المعينة، ومنها ما يشير إلى العلّة الغائبة التي تحدث المسبب، وتوجهه نحو غاية معينة، ويتجلى هذا في القياس الإستثنائي المتصل والمنفصل.(٣)

جـ تفهم الواقع بواسطة الإستدلال:فهم الواقع لا يقف عند حدّ، فكثيراً ما يحتاج الإنسانفي التعليل إلى الإنتقال مما يعرفه إلى ما لا يعرفه، وذلك بأن يجمع على نحو معين بين قضايا وأحكام مقررة مسلم بها، فيستخرج منها بصورة حتمية أحكاماً أخرى ضرورية، ويسمّى هذا العمل في علم المنطق بالإستدلالي، وهو على أنواع ثلاثة:

النوع الأول الإستدلال بالقياس:ينتقل العقل من حكم كلي إلى حكم جزئي، أي ينحدر من الأحكام الكلية إلى الجزئيات، فالعقل في هذه الحالة لا يستمر في الإنتقال من شرط إلى شرط، بل يميل إلى تعليق المشروط على حقيقة كلية لا مشروطة، وبذلك يستوعب سلسلة الشروط جميعاً في وحدة واحدة، قال الغزالي: (المنطقيات أكثرها على منهج الصواب، والخطأ نادر فيها، وإنّما يخالفون أهل الحق فيها بالإضافات، والإيرادات دون المعاني والمقاصد، إذ غرضها تهذيب طرق الإستدلالات، وذلك ممّا يشترك فيه الأنظار).(٤)

النوع الثاني: الإستدلالبالإستقراء، أو الإستدلال الصاعد:ينتقل فيه العقل من حكم جزئي إلى حكم كلي، فيرتقى فيه من الجزئيات إلى الأحكام الكلية، فنجد العقل يربط حكماً ما بشرطه كائنةً ما كانت قيمة هذا الشرط ومصدره، فيقوم بردّ المعرفة الجزئية

(١) ينظر مقاصد الفلاسفة ص ٨٩.
(٢) ينظر مقاصد الفلاسفة للغزالي ص ١٢٠.
(٣) ينظر معيار العلم للغزالي ص ٢٥٨.
(٤) مقاصد الفلاسفة ص ٣٢.

إلى المعرفة الكلية.

والجزئيات هي: كلّ ما تفيده الملاحظة والمشاهدة وتلمس الواقع من المعلومات الفردية، فينتقل ممّا يعرفه إلى ما لا يعرفه، مولدّاً معاني جديدة، فالإستقراء وضع جزئيات كثيرة داخلة تحت معنى كلي حتى إذا وجدت حكماً في تلك الجزئيات حكمت على ذلك الكلي به.[١]

النوع الثالث: الإستدلال بالتمثيل: ينتقل فيه من حكم جزئي إلى حكم جزئي آخر، وإنّما يكون: بأن يوجد أو يعلم أولاً أنّ شيئاً موجوداً لأمر جزئي فينقله الإنسان من ذلك الأمر إلى أمر جزئي شبيه بالأول فيحكم به عليه إذ كان الأمران الجزئيان يعمهما المعنى الكلي الذي هو من جهته وجد الحكم في الجزئي الأول، وكان وجود ذلك الحكم في الأول أظهر وأعرف، وفي الثاني أخفى.[٢]

ثالثاً ـ المنهج العلمي التحققي:فالمفكر لا يكتفي بما وصل إليه عن طريق الحواس والعقل من المعاني والمعارف، بل إنّه أخضعها للتحقق، ليتأكد منها بصورة قاطعة لا تحتمل الشك، وهذا المنهج التحققييتجلى في أساليب شتى أهمها الشكّ والتنقيب والنقد والتهكم، وإليك البيان:

أـ تفهم الواقع بواسطة الشك:التوقف والتريث إزاء ما يرد إلينا من الأخبار، وما ينتهي إليه التفكير من الحقائق والمعاني من مظاهر الشك، قال الجاحظ: وإعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له.[٣]

والشك الدافع إلى التمهل والتريث والحذر ليس إسلوباً سلبياً عقيماً غايته المغالطة والمعاندة فحسب، وإنّما هو مرحلة إنتقالية ضرورية، تفتح الباب لمراحل أخرى كالتنقيب والنقد والتهكم، وهي لا تقل أهمية عن المرحلة الأولى، إذ أن من لا يشك لا يتوقف، ومن لا يتوقف لا ينقب، ومن لا ينقب لا يجرب ولا يتحرى ولا ينقد، ولا يفصل نصيب الحق من نصيب الباطل، فلا يستطيع بالتالي الوقوف على الحقيقة بصورة يقينية.

فإذا بقي الإنسان شاكاً في الشيء، فإنّ كونه شاكاً يدعوه إلى البحث والطلب، فصار كونه شاكاً داعياً له إلى التحقق.[٤]

وهكذا يمكننا القول إنّ الشك يفسح المجال أمام التنقيب والنقد، بل إنّ التنقيب والنقد ينمّان عن الشك، فكما أنّ من مظاهر الشك التوقف، كذلك من مظاهر الشك كونه ينقب ويستقصي ويجرّب ليتأكد وينقد ليرفض أو ليقبل على سابق تحقيق.

وعناصر الشك عند أفلاطون أربعة، وهي:

١- اللغة:كانت اللغة موضع نقد شديد من جانب أفلاطون، فقد حمل على هذه العبارة التي أقامها الناس للألفاظ اللغوية، لأنّ الألفاظ تصور الحقائق

(١) ينظر معيار العلم ص ١٦٠، ومقاصد الفلاسفة ص٨٩.
(٢) ينظر معيار العلم ص ١٦٦، للغزالي، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، مسائل متفرقة للفارابي ص ١٣٠، مقاصد الفلاسفة للغزالي ص ٩٠، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف بمصر.

(٣) ينظر كتاب الحيوان ٦ / ٣٥.
(٤) ينظر المطالب العالية لفخر الدين الرازي، ٣ / ١٨، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار الكتاب العربي ــ بيروت.

بخلاف ما هي عليه في الواقع، لأنّ الألفاظ تضيف إلى ما تعبر عنه ثباتاً ودقةً ليسا موجودين في هذه الأشياء التي هي مدولاتها.

فأفلاطون: لا يعترف بالألفاظ اللغوية بوصفها مؤدية حقيقة إلى بيان حقيقة الأشياء كما هي عليه في الواقع، كذلك الحال في التعريفات، لأنّه في حقيقة أمرها كالألفاظ خصوصاً، وإنّها ليست غير الألفاظ نفسها، فما ينطبق على الألفاظ ينطبق بالتالي على التعاريف، فاللغة لا تؤدي إلى التعبير الصحيح عن حقائق الأشياء، فالمحاورات وحدها إذاً هي التي تستطيع أن تعبر تعبيراً حقيقياً عن هذه الحالة: حالة عدم الإنطباق بين الألفاظ ومدلولاتها.(١)

٢- البرهنة، قال: يجب أن لا نثق ثقة عمياء بطريقة البرهنة، فلا نكتفي بالإستقراء وحده، أو بالإستدلال وحده، بل يجب العمل بالإثنين، ولا بّد من الجمع بين الناحيتين، وإذا إستطعنا أن نصل إلى شيء يسمّى الماهية فيجب ألا نقتصر على هذه الماهية، بل نفترض الإفتراض العكسي لهذا الذي وصلنا إليه، وعن طريق هذا الإفتراض العكسي لهذا الذي وصلنا إليه نتبيّن صحة ما وصلنا إليه، وحينئذٍ إذا وجدنا أنّه ليس صحيحاً، وأنّ هذا الفرض الجديد قد مضى على الفرض الأول فيجب، ويجب علينا ونحن نبحث في هذا الفرض الجديد أن نراعي فيه ما إقتضاه الفرض الأول، أو الحقيقة التي وصلنا إليها، ومعنى هذا أنّه لا بّد من ربط الفروض بعضها ببعضٍ، والإرتفاع إلى فرضٍ أعلى من الفروض جميعاً يكوِّن الوحدة النهائية.(٢)

٣- الإحتمال:إذا كانت الحال كذلك فلا يمكن أن نصل إلى ما يسمّى بإسم حقيقة ثابتة، ولأجل هذا يريد أفلاطون في نظرية المعرفة أن يصل الإنسان إلى رؤية الشيء كما هو في صفائه، وكأنّ الإنسان يستشفّه في مرآة دون أن يغير في أدنى تغير.

٤- الأسطورة:حاول أفلاطون أن تكوِّن معرفة عقلية، وأن يجرد كل معرفة من كل ما هو حسيّ، لأنّه كان يرى أنّ ما هو حسيّ يشوه المعرفة، ولذا كان يطالب معرفة الماهيات المعقولة التي لا يشاركها شيء من الحسّ والخيال.(٣)

بـ تفهم الواقع بواسطة التنقيب:التنقيب يترتب على الشك، وهو يقوم على البحث والإستقصاء فيه، والتحري والتجربة وتتبع الموضوع وتقليبه على جميع وجوهه، وذلك سواء في الميدان الحسيّ والميدان الذهني والميدان النفسي، سعياً وراء فهم الواقع فهماً حقيقياً شاملاً.

والنزعة التنقيبية تبرز بنوع خاص في الإستقصاء عند البحث وتحرّي العلل والأسباب، وإيراد الأدلة والحجج، فينتقل المفكر من معرفة الحواس إلى معرفة العقل، ومن العلم إلى العمل، ومن الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى.

ج- تفهم الواقع بواسطة النقد:المنهج التحقيقي المستلزم للمعارف اليقينية تتمثل في الشك وما

(١) ينظر أفلاطون لـ د. عبدالرحمن البدوي ص ١١٩، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٥٤م.

(٢) ينظر أفلاطون ص ١٢٠.

(٣) ينظر أفلاطون ص ١٢٤ ــ ١٢٧.

يثيره الشك من بحث وإستقصاء وتجربة، غير أنّ هذا النقد لا يقتصر على إقتناص الحقيقة الأكيدة الصحيحة، وإنّما تقوم أيضاً على نقض القضية الباطلة ورفضها، ولمّا كان التميز بين الحق والباطل لا يتوصل إليه إلا بواسطة النقد، فالتحقيق إذاً يتضمن النقد أيضاً، فالنقد يضيف إلى طريقة تفكير المنطقي مسحة علمية عقلية،مثلاً قال الجاحظ:[١]

فلو كان بدل تصحيحه القياس إلتمس تصحيح الأصل الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص، ولكنه يظن الظنّ ثمّ يقيس عليه، ثمّ ينسى أنّ بدء أمره كان ظنّاً، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه، ولكنّه كان لا يقول سمعت ولا رأيت.[٢]

دـ تفهم الواقع بواسطة التهكم:يتناول نقد الخرافات، فالمفكر يروي الخبر، ويبرر ما فيه من المبالغة، ليظهر أنّه لا يعترف به، فالتهكم يكون بواسطة تضخيم الخبر والمبالغة فيه، بحيث تظهر عدم ثقته به، فيثير الضحك، ويهدم بصورة غير مباشرة الخرافة التي يقولها لنا.

وهجاء الأشخاص، وإظهار وجوه الخطأ في إدعاءاتهم وغرورهم، وإبراز عيبوبهم التي لا يعترفون بها من التهكم الذي يرمي إلى إفحام الخصم وتسفيهه بصورة غير مباشرة، بأن يضعه المفكر موضع التناقض، فتتضح الدعوى الباطلة، بحيث لا يبقى مجال إلى الإنكار، فيكشف القناع عن جهله، وأورد الجاحظ في وصف شخص يدعي المعرفة والتحقيق، فيقول:

جعلت فداك، فقد شاهدت الإنس مذ خلقوا، ورأيت الجنّ قبل أن يحتجبوا، فما يخفى عليك الحجة من الشبهة، ولا السقم من الصحة، ولا الممكن من الممتنع، ولا المستغلق من المستبهم، ولا النادر من البعيد، ولا شُبه الدليل من الدليل، ووجدت السببَ كما وجدت المسبب، وعرفت الإعتدال كما عرفت الإحتجاج.[٣]

وهناك أساليب أخرى ذكرها فخرالدين الرازي[٤] في كتابه المطالب العالية[٥]، وهي:

١- الرؤية والسماع: لأنّا إذا رأينا شيئاً، أو سمعنا صوتاً فقد تصير رؤية ذلك الشيء حاملة لنا على البحث والتحقق.

٢- الشهوة: وأمّا النفرة والكراهية فهما صارفتان عن التحقق والبحث.

- **المطلب الثاني: أسباب إكتساب العلم اليقيني عند المنطقي:**

غريزة العقل لا تفي بهذه المعرفة إلا بعد الإعتبار

(١) وهو: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي، أبو عثمان الشهير بالجاحظ، رئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، ولد سنة ١٦٣هـ بالبصرة، فلج في آخر عمره، وكان مشوه الخلقة، ومات والكتاب على صدره، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه، وذلك سنة ٢٥٥هـ بالبصرة. ينظر الأعلام ٥ / ٧٤.

(٢) كتاب الحيوان ٢ / ٢٣٠.

(٣) كتاب التربيع والتدوير ص ٣٨.

(٤) هو: محمّد بن عمر بن الحسين بن علي الإمام، أبو عبدالله القرشي التيمي البكري الطبرستاني، توفي بهراة يوم العيد الفطر سنة ٦٠٦هـ. الأعلام ص

(٥) ينظر المطالب العالية ٣ / ١٨ ــ ١٩.

والتنبيه، وحسن النظر، والإرتقاء من المعارف الحسية إلى المعارف العقلية، والإعتماد على العقل وأحكامه في إكتشاف الحقيقة الثابتة، والإنتقال من الشك إلى اليقين، وذلك كله يتراءى في تلك الأسباب، وهي:

١- أكبر وأسمى وأمثل وأقوى أسباب إكتساب العلم اليقيني لدى العاقل اليقيظ، والمفكر الدقيق هو: القرآن الكريم، كتاب الله تعالى، قال جلّ وعلا: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبْرَاهِيم الآية ١] ، وقال أيضاً:﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٥٠﴾ [العَنكَبُوت الآية ٥٠] ، فأخبر أنّ الكتاب آية من آياته، وأنّه كافٍ في الدلالة، قائم مقام معجزات غيره، وآيات سواه من الأنبياء عليهم الصلاةوالسلام.

والأخذ بما صدر عن النبيّ ﷺ من قول أو فعل، فبسبب الإيمان به ﷺ يحصل الإنسان على سعادته في الدنيا والآخرة، ويعرف الإنسان مكانته بين الموجودات، ويعرف أصله في الوجود، ومصيره في الحياة، ويعرف بل يفرق بين السبب والمسبب، وبين العلة والمعلول في التحقق، ولا يخالفنا في ذلك إلا الدهرية:

فمن العبث الحجاج معهموإعتبارهم مخالفين في هذه المسألة، وإنّما يكون الحجاج معهم في أصل مذهبهم فنبطله لهم ونقيم لهم الدليل: على وجود الله تعالى وبعثة رسول الله ﷺ إلى كافّة الناس، وبعد ذلك نكون في غنية عن إثبات إكتساب اليقين بالسنة النبوية.

وإلا كيف يتصور أن يكون نزاع في هذه المسألة بين المسلمين؟، وأن يأتي رجل وفي رأسه عقل يقول: أنا مسلم، ثمّ ينازع في حجية الإستدلال بالسنة بجملتها، فأساس هذا الدين هو القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، ولا يمكن القول بأنه كلام الله تعالى مع الإنكار بالإستدلالبأقوال النبيّ ﷺ.

فإنّ كونه كلام الله تعالى لم يثبت إلا بقول الرسول ﷺ الذي ثبت صدقه بالمعجزة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النِّسَاء الآية ١٣٦] .

وقال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾ [التَّغَابُن الآية ٨]، وقال أيضاً: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأَعْرَاف الآية ١٥٨] ، وغيرها من الآيات كثيرةٌ، وإحتجنا بالبعض خوفاً من طول البحث.

ثبت عن طريق عبدالله بن عمرو[1] رضي الله عنهما،

(١) جده الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، وأمّه زينب بنت مظعون الجمحية، أسلم مع أبيه، وهاجر، توفي سنة إثنين أو ثلاث وسبعين للهجرة.
ينظر الإصابة في تميز الصحابة، لإبن حجر العسقلاني، ٢ /

أنَّ رسـول الله ﷺ قال: «إنَّ لِكُلِّ عملٍ شِرَّةً، ولِكُلِّ شِرَّةٍ فـترةٌ، فمـنْ كان فترتُهُ إلى سـنتي فقد اهتدى، ومَنْ كانَتْ إلى غيرِ ذَلِكَ فقدْ هَلَكَ».(١)

وقـال ﷺ: «تركتُكم على البيضـاءِ ليلِها كنهارِها لا يزيغُ عنها بعدي إلا هالِكٌ، ومن يَعِشْ منكم فسَيرى اختلافًـا كثيراً فعليكم بما عرَفتُم من سُـنَّتي وسُـنَّةِ الخلفاءِ المهدِيِّينَ الرَّاشدينَ».(٢)

٢- البلاغة أداة تبليـغ العلم، وإيصال الدعوة، فمن الطبيعـي أن تدخـل في دائـرة نشـاط المفكريـن، وإهتماماتهم:

فعلى المفكر أن يكون بليغـاً، لأنّ المعرفة الحقيقة لا تكتمل مـا لم يُعبِّر عنها بعابـرة مطابقة لمقتضى الحـال، لأن العلاقة بين التفكير والتعبيروثيقة جداً، فالتفكـير الصحيح لا بّد أن يُعبرّ عنه تعبيراً واضحاً، لأنّ العبـارة الواضحـة هـي دليـل عـلى التفكـير الصحيح.

وأصحاب الفكر مـن المتكلمين بصورة عامة كانوا خطباء ودعاة، يسعون وراء العلم، لا لإرواء تعطشهم إلى المعرفـة فقط، بـل أيضاً إبتغاءً لنـشره، وإعلاءً شأن الحق، وبثّ اليقين في نفوس المستمعين.

فالبلاغـة سـبب مـن أسـباب الوصـول إلى العلم اليقيني، ومرتبطـةٌ به بصورة وثيقة، فأصبحت أصلاً من أصول المنهج العقلاني للإستدلال.

٣- عـلى المنطقي السـاعي وراء العلـم والحكمة: الإعتبـار والتنبيـه والنظـر والبحث، غـير أنّ النظر والإعتبار اللذينِ يسـعى إليهما المنطقي لا يكونان بفتـح العينوإسـتماع الآذان، قـال الجاحـظ: إنّما بالتوقـف من القلب، والتثبت من العقل، وبتحفيظه وتمكينه من اليقين والحجـة الظاهرة،(٣)وذلك لأنّ الأمـور لها حكمانِ: حكم ظاهـر الحواس، وحكم باطـن للعقـول، والعقـل هـو الحجة،(٤)فالبراهين والأدلة التي بها يصل الإنسـان إلى المعرفة اليقينية هـي من أعمال العقل، كما أنّ الفصل بين الصحيح والباطل في معطيات الحواس يرجع إلى العقل.

٤- عـلى المنطقي أن يحسـن النظـر،(٥) ولا يكون كذلك مـالم تتوافر لديـه آلة للنظر سـليمة، وعقل صحيح،(٦) ليحسـن إسـتعمالهما في إسـتدلالاته، فالإسـتدلال يترتّب على وجود العقل، ويقوم على إرتياد إلى مواقع الحكمة في الكون، بواسطة الدلالة على الحكمة التي إسـتودعها الله فيه، ولا سيّما أنّ الله تعالى أودعها لهذه الغاية، إذ أنّه لولا الإستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى.(٧)

١٠٩٥ وما بعدها، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت ــ لبنان.

(١) في صحيح الجامع، رقم الحديث ٢١٥٢.

(٢) صحيح الترمذي، رقم الحديث: ٢٦٧٦.

(٣) ينظر كتاب الحيوان ٤ / ٢١١.

(٤) ينظر كتاب الحيوان ١ / ٢٠٧.

(٥) لصحـة النظر ووصوله إلى المطلوب شروط وأسـباب ذكرتها في كتـابي: النظر عند المتكلمين، فمن أراد الإطلاع عليهـا فليراجعهـا، ولا داعـي لذكرها هنـا، لأنّ موضوعنا التحليل للمنهج العقلي في الإستدلال.

(٦) ينظر التربيع والتدوير للجاحظ، تحقيق شارل بلاّ، ص ١٠٢، دمشق سنة ١٩٥٥م.

(٧) ينظر كتاب الحيوان ١/ ٣٣ ــ ٣٤، ٢ / ١١٥ ــ ٢١٢.

وحسن النظر لا يكون ما لم ينظر المنطقي إلى الأمور من الوجهة التي أراد الدال أن ينظر إليها، أي من الجهة التي يدل الله تعالى منها، غير ذلك لا يكفي أن ينال العقل ذلك بنفسه إلا:

أ- بما باشرته الحواس، وما إستدعته الحوائج من الخواطر.(١)

بـ والإلتزام لقوانين النظر، فيكون تفكيره منطقياً صحيحاً، يستعين فيه بمقدمات صادقة، منتظمة التركيب، فحينئذٍ يستطيع معرفة الأمور على حقائقها الثابتة.(٢)

قال الجاحظ: أنّ سبب إفتراق المفكرين،وإختلافهم يرجع إلى إغفالهم لمواضع الفرق وفصل الحدود، فمن قبل ترك النظر، ومن قبل قطع النظر، ومن قبل النظر من غير وجه النظر، ومن قبل الإخلال ببعض المقدمات، ومن قبل إبتداء النظر من جهة النظر مع إنتظام المقدمات، إختلفوا أي إختلف المفكرون.(٣)

جـ والإستدلال بما يصل إليه من الأخبار الصادقةو الثابتة على ألسنة قوم لا يتصور تواطؤهم على الكذب، هو الخبر المتواتر.(٤)

وإهمال الفكرة يقتل العقل، لأنّ مهمته تقوم على التفكير والإعتبار، كما أنّ الله تعالى لم يخلق النار عبثاً، ولا الجنة هملاً، ولا الإنسان سدى، فالعقل أهل لأن يقود إلى الحق على شرط أن يعتبر ويستدل ويستخرج الحجة القاهرة والدلالة الواضحة، في حين أنّ الدلالة بيّنة، والحجة واضحة في ظهور حقيقة الأمور وحكمة خالقها.

٥- قبل الإستنباط علل الأشياء على المنطقي الأخذ بمعطيات الحواس، في إكتساب المعرفة اليقينية، والوقوف عليها،وتفحصها تامّاً كاملاً، على أن تكون مرحلة للإرتقاء منها إلى المعرفة اليقينية.

فالمعرفة الحسية تعتبر المادة التي يعمل فيها العقل، مستنبطاً معللاً مستدلاً بما يقع تحت الحواس على الحقيقة الثابتة، قال الجاحظ:لتكون المعارف الحسية، والوجدانات الغريزية، وتمييز الأمور بها، إلى ما يتميز عنه العقول، وتحصره المقاييس، وليكون عمل الدنيا سلماً إلى عمل الآخرة، وليرتقى من معرفة الحواس إلى معرفة العقول.(٥)

٦- المفكر المنطقي يخضع معطياته للشك والنقد، فهو يعتبر الشك مرحلة ممهدة لليقين، فالشك أسلوب وطريق في إكتساب المعرفة اليقينية، إذ يفيد الباحث التريث والتمهل والتوقف، ويدفعه إلى العمل على إكتشاف العلل والأسباب الحقيقية التي تزيل الشكوك، وتفيدفي تحصيل اليقين.

فالمنطقي يدعو إلى تعلم الشك في المشكوك فيه، أي إلى الشك المنهجي الذي يعوّد على التوقف والتثبت من الأمور، ويدفع خطر التسرع في قبول الأخبار، والتعرض بالتالي إلى الخطأ، وأبو إسحاق

(١) ينظر شرح العقائد لسعد التفتازاني ص ٢٥ ــ ٢٦، مطبعة دار الإحياء الكتب العربية، مصر، التربيع والتدوير ص ١٠١.

(٢) ينظر شرح العقائد ص ٢٥ ـ ٣٦.

(٣) ينظر كتاب الحيوان ١ / ٢٠٩، التربيع والتدوير ١٠١.

(٤) ينظر شرح العقائد ص ٢٩ وما بعدها.

(٥) ينظر كتاب الحيوان ٢ / ١١٦.

النظـام[١] وتبعـه الجاحـظ على ذلـك المنهج من أنّ اليقـين مسـبوق لا محالـة بالشـك، حيث قال الجاحظ: لم يكن يقين قط حتى كان قبله شكّ.[٢] وعنـد فخرالدين الرازي أنّ الشـك لا يكـون داعياً إلى التحقـق، وليس سـبباً مـن الأسـباب الواصلة إلى اليقـين، لأنّ الشـاك في الشيء مـتردد فيه على التسـوية والإقـدام عـلى الفعـل ترجيـح لجانـب الفعل، والإسـتواء يناقض الترجيح، وأحد الضدين لا يكون سـبباً للضد الثاني، فكونه شـاكاً لا يحمله على الطلب.

بل الداعي إلى الطلب هـو العلم والإعتقاد، وذلك لأنّـه إذا لم يعلم حـال الشيء جوز فيه كونه سـبباً للضرر، والعلم حاصل بأنّه لا يمكنه دفع هذا الضرر المحتمـل إلا بأن يعـرف حال ذلك الـشيء، فهذا الإنسان عالم بأن تحصيل العلم بحال تلك الواقعة يفيدهالإحتراز عن ذلك الضرر المحتمل، وهذا نفع عظيم، فالعلم بإشتمال ذلك الطلب على هذا النفع هو الذي صار حاملاً له على هذا الطلب.[٣]

ولمّا كان الشـك وسـيلة فحسـب فعلى الشاك أن يخـرج منه بإكتسـاب اليقـين، والطريـق إلى ذلك إستخراج الأدلة التي تحوّل المظنون إلى اليقين،قال الجاحظ في كتابه: المعاد والمعاش[٤] (وأول العلم بالغائـب الظنـون، والظنـون إنمّا تقـع في القلوب بالدلائل، فكلـما زاد الدليل قوي الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشـكوك على القلوب، وذلك لكثرة الأدلة،ولترادفها).

وأمّا رنى ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠ فقد قال:أنا أشك في الحواس لأنّها خدعتني أحياناً، ولعلها تخدعني دائماً، وليس من الحكمة الإطمئنان إلى من يخدعنا ولو مرّة واحدة، وأنا أشـك في إستدلال العقل، لأنّ النـاس يخطئـون في إسـتدلالاتهم، وبعضهم من يخطىء في أبسـط الموضوعات الهندسـية، فلعلي أخطيء دائماً في الإسـتدلال، ومن دواعي الشـك أيضـاً أنّ نفس الأفكار تخطـر لي في النوم واليقظة على السـواء، ولسـت أجـد علامة محققـة للتميز بـين الحالتـين، فأنا أسـتطيع الشـك في كل شيء ما خلا شـكي، ولمّا كان الشـك تفكـيراً فأنا أفكر، ولمّا كان التفكير وجـوداً فأنا موجود، أنا أفكر وإذاً فأنا موجود.[٥]

المنصف العاقل عندما يقرأ هذه النصوص المنقولة مـن علماء المسـلمين يـرى أنّهم كيـف بحثوا في أسـباب العلـم اليقينـي، وكيف تكلمـوا في نظرية الشـك إثباتاً ونفياً، فهم سـبقوا ديـكارت في القول بهذه النظرية، فمن غير المنصف نسـبة هذه النظرية إلى هذا الشخص المتأخر عن هؤلاء العلماء بسنين طويلة، والسـبب في نسبة هذه النظرية إلى ديكارت يرجـع إلى جهـل المسـلمين بماضيهـم، وحـال علمائهـم، فانظر يا مفكـر الأمة كيف نبخس جهود

(١) هو: إبراهيم بن سيار النظام أبو إسحق، وهو من الطبقة السادسـة من المعتزلـة، وهو إبن أخـت أبي الهذيل، توفي سنة ٢٣١هـ. ينظر فرق وطبقات ص ٥٩ وما بعدها.
(٢) ينظر كتاب الحيوان ٦ / ٣٦.
(٣) ينظر المطالب العالية ٣ / ١٨.
(٤) المعاد والمعاش ٢٥.
(٥) ينظر تأريخ الفلسفة الحديثة، ص ٦٦ ــ ٦٧.

علمائنا؟! ولا نردّ بضاعتهم إليهم.

والسبب الثاني: عداوة أهل الكفر والعدوان، فهم كما يحاربوننا بقوة السلاح والإرهاب، كذلك يحاربوننا من الناحية الفكرية بإدخال الشبه بيننا، وجعلنا تابعين لهم في كل شيء، وعدم ثقتنا بأنفسنا، وصنع الفرق الضالة بيننا، فالحل الأوحد هو الرجوع إلى هذا الدين الحنيف السمح الطاهر عقيدةً وخلقاً وسلوكاً.

والمفكر المنطقي رغم تقديسهم للعقل نراهم يستغلون الأصول الدارجة عند غيرهم من سوفسطائية وغيرها ويدمجونها في أساليب إكتساب المعرفة، غير أنّهم لم يقبلوا موقف السوفسطائيين المبدئي في عدم إمكانية الوصول إلى الحقيقة، كما أنّهم لم يطبقوا هذه الأصول إلا في ظروف معينة ومصوغات قابلة لهذا النوع من المغالطة، وفي أمور يكاد يقترب الشيء فيها إلى نقيضه، ولا عجب من ذلك، إذ إنّنا نرى أرسطو نفسه يدمج في منطقه ما أسماه بـ القياس المضمر ــ المبني على مقدمات مظنونة محتملة ما دام الخصم يسلم بها.[1]

* * *

الخاتمة

أهمّ النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث هي كالآتي:

١ـ للعقل مكانة خاصة لدى شرع الله تعالى، فهو مناط التكليف، فلا يكلف الإنسان عند غياب هذه الصفة العظيمة وذلك في حالة الطفولة، والنوم، والجنون.

٢ـ العاقل يشعر بما حوله، ويقدر الأشياء التي يحس بها، فيربط السبب منها بالمسبب، والعلة منها بالمعلوم للوصول إلى النتائج الحقة.

٣ـ مهما يكن مكانة العقل فهو محدود فلا يعي كل شيء، مثلاً: من طرق البابَالذي نحن خلفه، وما رأيناالشخص الطارق من قبل، فمن إستئذانهلا نعرف: أنّه قصير، أو طويل، ولا ندري متى ولد، ولا نعرف مكان ولادته، ولا لون وجهه، وغير ذلك مما نجهل عنه كثير، فلا نعرف من صوته إلا أشياء عديدة محدودة.

٤ـ إرسال الرسل صلوات الله عليهم أجمعين من قبل خالق هذا الكون لإعانة العقل لفهم الشيء، فالشرع مقدم على العقل، والعقل تابع له، غير حاكم.

٥ـ لو كان العقل حاكماً على الأشياء بالحسن والقبح لما إحتجنا إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما إختلف الناس في الحق، أو يمكن القول بأنّ من قال بحاكمية العقل لا يعترف بإحتياج البشرية لنبوة الأنبياء والعياذ بالله تعالى، وتفاوت عقول الناس في الإدراك يردّ عليه.

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، لإبراهيم سلامة ص ٤٤ ــ ٤٥ ــ ٤٦ ــ ٦٠، طبع سنة ١٩٥٢م.

المصادر والمراجع

- بعد القرآن الكريم:
١ـ الإصابة في تميز الصحابة، لإبن حجر العسقلاني، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت ــ لبنان.
٢ـ الأعلام قاموس وتراجم، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ــ لبنان.
٣ـ أفلاطون، لعبدالرحمن البدوي، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٥٤م.
٤ـ الإنتصار في الردّ على إبنالراوندي الملحد، للخياط، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية.
٥ـ الفلسفة وقضايا اللغة، بشير خليفي، منشورات الأخلاق.
٦ـ الباقلاني وآراؤه الكلامية، للدكتور محمّد رمضان عبدالله، مطبعة الأمة ــ بغداد.
٧ـ البدر الطالع بما حسن من بعد القرن السابع، محمّد بن علي الشوكاني، الناشر أسامة بن الزهراء.
٨ـ البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها، أمين الخولي، القاهرة.
٩ـ بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، إبراهيم سلامة، القاهرة سنة ١٩٥٢م.
١٠ـ البيان والتبين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة.
١١ـ تأريخ الخلفاء، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق محمّد محي الدين عبدالحميد، مكتبة الشرق الجديد، بغداد ــ العراق، دار العلوم الحديثة، بيروت ــ لبنان.
١٢ـ تأريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، بيروت ــ لبنان.
١٣ـ التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، عبدالرحمن البدوي، القاهرة، سنة ١٩٤٦م.
١٤ـ التربيع والتدوير، الجاحظ، تحيق شارل بلاّ، دمشق ــ ١٩٥٥م.
١٥ـ الثقات لإبن حبان: محمّد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ، أبو حاتم الدرامي البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ـ الهند ـ الطبعة الأولى، سنة ١٩٧٣م.
١٦ـ الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة ــ ١٩٤٠م.
١٧ـ الرسائل للجاحظ، في حجج النبوة، وفي المعاد والمعاش، تحقيق طه الحاجري، وباولكراوس، طبع في القاهرة سنة ١٩٤٦م.
١٨ـ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة.
١٩ـ شرح العقائد، سعد الدين التفتازاني، والعقائد لنجم الدين عمر النسفي، مذيلاً بحاشية الخيالي، والعصام، مطبعة دار الإحياء الكتب العربية، مصر.
٢٠ـ شرح الموافق، الجرجاني، والمواقف لعضدالدين الإيجي، دار الطباعة العامرة.
٢١ـ صحيح الترمذي، محمّد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف.
٢٢ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمّد ناصر الدين، المكتب الإسلامي، سنة النشر ١٩٨٨م.

٢٣ـ ضحى الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي.
٢٤ـ العبر في خبر من غبر، الذهبي، تحقيق أبي هاجر محمّد بن سعيد بيسوي زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان.
٢٥ـ فرق وطبقات المعتزلة، القاضي عبدالجبار الهمداني، تحقيق علي سامي النشار، وعصام الدين محمّد علي، دار المطبوعات الجامعية.
٢٦ـ الفهرست، محمّد بن إسحق إبن نديم، دار المعرفة، بيروت ــ لبنان، سنة ١٩٧٨م.
٢٧ـ مسائل متفرقة، الفارابي، في ضمن الرسائل الفلسفية الكبرى لأبي نصر الفارابي، تحقيق وتقديم عبدالأمير الأعسم، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.
٢٨ـ المطالب العالية، فخرالدين الرازي، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار الكتاب العربي ــ بيروت.
٢٩ـ المعتزلة، زهدي حسن جارالله، مطبعة مصر.
٣٠ـ معيار العلم، محمّد بن محمّد الغزالي، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦١م.
٣١ـ مقاصد الفلاسفة، محمّد بن محمّد الغزالي، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦١م.
٣٢ـ المقدمة، عبدالرحمن بن محمّد بن خلدون، دار القلم، بيروت ــ لبنان.
٣٣ـ المنطق التوجيهي، أبي العلاء العفيفي، القاهرة، سنة ١٩٤٤م.